بلاغة النظم القرآنى

فى سورة الإنسان

دكتور

هشام رزق إسماعيل زيادى

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

فرع إيتاى البارود

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، والصلاة والسلام على مَنْ أنزله الله على قلبه ليكون للعلمين نذيراً بلسان عربى مبين ،

وبعد

فإن القرآن الكريم – كما هو معلوم – كلام الله تعالى المعجز للثقلين فى أسلوبه ونظمه وفى روعة بيانه وعظيم أثره ، وهذا البحث " **بلاغة النظم القرآنى فى سورة الإنسان** " قد شَرُفَ بأن يكون فى رحاب ذلك الكتاب العزيز من خلال تلك السورة الكريمة ، ومما لاشك فيه أن الدراسة البلاغية لأسلوب القرآن الحكيم ونظمه ليست بالأمر الهين لأنه من أكبر الخطأ والخطر أن يقول الباحث فى كتاب الله – عز وجل – ما لا يعلم ، ولذا راعيت الدقة البالغة والحذر الشديد فى إعداد هذا البحث الذى تصدره الحديث عن الاستعاذة وبيان دلالتها ، والإشارة إلى فضلها ، وكذا البسملة وتفسيرها وبيان فضلها وتجلية اللطائف البلاغية التى اشتملت عليها . فضلاً عن التعريف بسورة الإنسان " وذكر مسمياتها ، ومناسبتها لسورة القيامة وتحديد الأغراض التى تضمنتها .

ثم انتقل البحث إلى دراسة تلك السورة الكريمة ، وتحليل آياتها ، وذلك على النحو الآتى :– أولاً : التحليل اللفظى . ثانياً : المعنى العام . ثالثاً : النظم البلاغى .

فالتحليل اللفظى اختص بالألفاظ القرآنية التى تحتاج إلى بيان وتوضيح ، وذلك لكشف دلالاتها ومراميها ، والوقوف على استعمالاتها المختلفة التى تدور حولها حتى يدركها القارئ الكريم لاسيما المختص فى

البحث اللغوى . كما كان من الضرورى أن يهتم هذا البحث بتوضيح وتجلية المعنى العام للآيات القرآنية ليعلمه القارئ العزيز ، ويتعرف من خلاله على مقاصد تلك السورة الكريمة وأغراضها ، وهذا يمهد له الطريق إلى إدراك المباحث والمسائل البلاغية المختلفة التى تكمن فى آيات تلك السورة الكريمة .

ولما كان النظم البلاغى جوهر هذا العمل وذِرْوَةَ سَنَامه فقد اعتنى هذا البحث – جد الاعتناء – بإبراز وبيان الألوان والمباحث البلاغية المتفاوتة فى آيات تلك السورة المجيدة وكشف آثارها وتجلية أسرارها وأغراضها ومناقشة آراء العلماء حولها ، وكذا الوقوف على أسرار ودقائق بعض الألفاظ والحروف الواردة فى سياق تلك الآيات الكريمة ، وذلك لإبراز الإعجاز القرآنى الفريد والخصائص البلاغية الراقية لذلك الكلام الحكيم الذى لو اجتمعت الإنس والجن على الإتيان بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً كما قال الله عز وجل : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

والله الكريم أسأل أن يكون قد حالفنى التوفيق والصواب فى إعداد هذا البحث المتواضع ، وأن يغفر لنا أخطاءنا وسوء فهمنا ، وأن ينفع بما فيه من صواب إنه سميع مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد النبى العربى الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

الأربعاء : ٤ من رجب ١٤٢٦هـ — **د/ هشام رزق إسماعيل زبادى**

٩ من أغسطس ٢٠٠٥م

القول فى الاستعاذة

ورد فى لسان العرب أن : عاذَ يعُوذُ عَوْذاً ومَعاذاً لاذَ به ولجأ إليه واعتصَمَ ومعاذَ الله ، أى عياذاً بالله . قال الله عز وجل : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ (*) أى نعوذُ بالله مَعاذاً أنْ نأخُذَ غير الجانى بجنايته ، ورُوِىَ عن النبى - ﷺ - أنه تزوجَ امرأةً من العرب ، فلما أُدْخِلَتْ عليه قالتْ : أعوذُ بالله مِنْكَ ، فقال : لقد عُذْتِ بمعَاذٍ ، فالحقى بأهْلِكِ ، والمعاذُ فى هذا الحديث : الذى يُعاذُ به . والمعاذُ : المصدَرُ والمكانُ والزمانُ ، أى قد لجأتِ إلى ملجإٍ ، ولُذْتِ بملاذٍ . والله - عز وجل - معاذُ مَنْ عاذَ به وملجأ من لجَأ إليه ، والملاذُ مِثْلُ المعاذِ ، وهو عياذِى ، أى ملْجِىء " (١) .

ويقول العلامة ابن قيم الجوزيَّة : إن لفظ " عاذ " وما تصرف منها يدل على التحرز والحصن والنجاة ، وحقيقة معناها : الهروب من شئ تخافه إلى من يعصمك منه (٢) .

ويقول صاحب المفردات : إن العَوْذَ هو الإلتجاءُ إلى الغير والتعلقُ به يُقالُ : عاذ فلانٌ بفُلانٍ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) (البقرة من الآية : ٦٧) .

وقد ذكر الإمام القرطبى أن الله تعالى أمر بالاستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

(*) يوسف من الآية : ٧٩ .

(١) اللسان - ط / دار المعارف . مادة : عوذ .

(٢) بدائع الفوائد . الناشر : مكتبة نزار مصطفى الباز ٤٢٦/٢ .

(٣) المفردات فى غريب القرآن الكريم - ط / دار المعرفة ص ٣٥٢ .

(النحل : ٩٨) أى إذا أردت أن تقرأ ، فأوقع الماضى موقع المستقبل " (١)

والمشهور الذى عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها – ومعنى الآية عندهم (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أى إذا أردت القراءة " (٢) .

" ولقد أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه ، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوذ لأنه لفظ كتاب الله تعالى " . (٣) " والاستعاذة هى الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر والعياذة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبى :

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به ممن أحاذره (٤)

" والشيطان مشتق من شطن إذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير وقيل مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار ومنهم من يقول كلاهما صحيح فى المعنى ولكن الأول أصح وعليه يدل كلام العرب قال أمية بن أبى الصلت فى ذكر ما أوتى سليمان عليه السلام :

أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقى فى السجن والأغلال

فقال أيما شاطن ولم يقل أيما شائط (٥) .

---

(١) تفسير القرطبى – ط / دار الكتب العلمية ١/ ٦١ ، ٦٢ .

(٢) تفسير ابن كثير – ط / دار إحياء الكتب العربية ١٣/١ .

(٣) تفسير القرطبى ٦٢/١ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٥/١ .

(٥) السابق ١٥/١ .

" وسُمّى الشيطان شيطاناً لبعده عن الحق وتمرده ، وذلك أن كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان " (١) قال الله تعالى : ﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ (الأنعام من الآية ١١٢) . فجعل من الإنس شياطين " (٢)

ومعنى الرجيم أى المبعد عن الخير المهان . وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، وقد رجمته أرجمه ، فهو رجيم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم ، وقد قيل هذا كله فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (الشعراء : ١١٦) . وقول أبى إبراهيم : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ (مريم : ٤٦) (٣) " والرجيم فعيل بمعنى مفعول أى أنه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ (الملك من الآية : ٥) وقال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (الصافات : ٦ : ١٠) وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحجر : ١٦ : ١٨) إلى غير ذلك من الآيات وقيل رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والخبائث والأول أشهر وأصح " (٤) .

---

(١) تفسير القرطبى ٦٤/١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ط / دار الفكر ٧١/١ .

(٣) تفسير القرطبى ٦٤/١ ، ٦٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٦/١ .

والمعنى العام لهذا القول " أعوذ بالله من الشـيطان الـرجيم " : " أى أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرنى فى دينـى أو دنيـاى أو يصدنى عن فعل ما أمرت به ، أو يحثنى على فعل ما نهيـت عنـه فـإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله – عز وجل – " (١) .

فضل الاستعاذة : " روى الإمام مسلم – رضى الله عنه – عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه أتى النبى – ﷺ – فقال يا رسول الله ، إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى يلبسها علىَّ ، فقال له رسول الله – ﷺ : " ذاك شيطان يقال له خِنْزَبُ فإذا أحْسستَهُ فتعوذْ بالله منه واتفُلْ عن يسـارك ثلاثاً قال : ففعلت فأذهبه الله عنى (٢) " ، وروى الإمام مسلم – أيضاً – عن خَوْلة بنت الحكيم قالت : سمعتُ رسول الله – ﷺ – يقول : " مَنْ نزل منزلاً ثم قال أعوذُ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شئ حتى يرتحـل من منزله ذلك (٣) " (٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٥ .

(٢) صحيح مسلم ٤/١٧٢٩ . ط / دار إحياء التراث العربى . ت/ محمد فـؤاد عبـد الباقى .

(٣) صحيح مسلم ٤/٢٠٨٠ .

(٤) تفسير القرطبى ١/٦٣ ، ٦٤ .

البسملة

تفسيرها – فضلها

هذا القول : " بسم الله الرحمن الرحيم " يسمى عند أهل اللغة بالبسملة فيقال بسمل الرجل إذا قال بسم الله ، ويقال : قد أكثرت من البسملة ، أى من قول بسم الله " (١) .

و " الباء " فى " بسم الله " من حروف المعانى ومن معانيه : الاستعانة مثل كتبت بالقلم ، والسببية مثل : أُخِذَ بذنبه ، والظرفية نحو : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (آل عمران : ١٢٣) والإلصاق ونحوه مثل : أمسكتُ بالقلم ، وأخذتُ برأيك والقسم مثل : أُقسم بالله وتكون للتعدية مثل : ذهبت به " (٢) والباء – هنا – فى " بسم الله " بمعنى الاستعانة أى أبدأ القراءة مستعيناً باسم الله عز وجل أو بعون الله تعالى وتوفيقه وبركته ، وهذا تعليم من الله تعالى لعباده ، ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جل وعز " (٣) وكُسِرت " الباء " فى " بسم الله " لوجهين : أحدهما : لتكون حركتها من جنس عملها ، والثانى : للتفرقة بينها وبين ما لا يلزم الجر فيه كالكاف " (٤) و " اسم " مشتق عند البصريين من السُّمُو وهو العلّو والرفعة ، فقيل : اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره ، وقيل : إنما سُمِّىَ الاسم

---

(١) تفسير القرطبى ١/٩٦ .

(٢) المعجم الوسيط – ط / المجمع اللغوى بالقاهرة ١/٣٥ .

(٣) تفسير القرطبى ١/٧٠ .

(٤) البيان فى غريب إعراب القرآن الكريم للأنبارى – ط / الهيئة العامة للكتاب – بتصرف يسير ١/٣١ .

اسماً لأنه علا بقوته على قسمى الكلام : الحرف والفعل ، والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل فلِعلُوّه عليهما سمى اسماً ، ويرى الكوفيون أنه مشتق من السِّمة وهى العلامة ، لأن الاسم علامة لمن وضع له ، فأصل اسم على هذا " وسم " . والأول أصح ، لأنه يقال فى التصغير سمى وفى الجمع أسماء ، والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها ، فلا يقال : وسيم ولا أوسام " (١) .

ولفظ الجلالة " الله " هو " أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ، ولذلك لم يُثَنّ ولم يجمع ، والله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفردة بالوجود الحقيقى ، لا إله إلا هو سبحانه " (٢) .

" و " الله " أصله إله ، فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فَخُصَّ بالبارى تعالى ، ولتخصصه به قال تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (مريم:٦٥) وأله فلان يأله : عبد . وقيل : تأله . فالإله على هذا هو المعبود.

وقيل هو آله : أى تحير . وتسميته بذلك إشارة إلى ما قال أمير المؤمنين : كل دون صفاته تحبير الصفات ، وضل هناك تصريف اللغات ، وذلك أن العبد إذا تفكر فى صفاته تحير فيها ، ولهذا روى : تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله . وقيل أصله ولاه فأبدل الواو همزة . وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والها نحوه : إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات ، وإما بالتسخير والإرادة معاً كبعض الناس . ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء : الله محبوب الأشياء كلها ، وعليه دل قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن

---

(١) تفسير القرطبى ١/٧١ .
(٢) تفسير القرطبى ١/٧٢ .

شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء : ٤٤) وقيل : أصله من ولاهَ يلوهُ لياها : أى احتجب . قالوا : وذلك إشارة إلى ما قال الله تعالى: ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ (الأنعام : ١٠٣) والمشار إليه بالباطن فى قوله تعالى : ﴿ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ (الحديد : ٣) وإله حقه ألا يجمع إذ لا معبود سواه ، لكن العرب لاعتقادهم أن هناك معبودات جمعوه فقالوا : الآلهة " (١) .

" الرحمن الرحيم " : نحو نَدْمَان ونديم . ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له ، إذ هو الذى وسع كل شئ رحمة والرحيم : يستعمل فى غيره ، وهو الذى كثرت رحمته . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٧٣) وقال فى صفة النبى - ﷺ - : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨) وقيل : " إن الله تعالى هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة يختص بالمؤمنين . وعلى هذا قال : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) تنبيهاً أنها فى الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة مختصة بالمؤمنين " (٢) .

هل البسملة آية من القرآن الكريم ؟

" اتفق العلماء على أن البسملة بعض آية من سورة النمل ، ولكنهم اختلفوا فى عدّها آية مستقلة فى أول كل سورة من القرآن الكريم إلا سورة براءة وذلك على ثلاثة أقوال :

---

(١) المفردات فى غريب القرآن الكريم – ط / دار المعرفة ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن الكريم – ط / دار المعرفة ص ١٩١ ، ١٩٢ .

الأول : أنها ليست بأية من الفاتحة ولا غيرها وهو قول الإمامين أبى حنيفة ومالك وأصحابهما .

الثانى : أنها آية من كل سورة إلا براءة ، وهو قول الأئمة كابن عباس وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن المبارك ، وغيرهم رضى الله عنهم جميعاً .

الثالث : أنها آية من الفاتحة وليست من غيرها من السور وهو قول الإمام الشافعى رضى الله عنه " (١) .

ويرى العلامة القرطبى أن الصحيح من هذه الأقوال هو القول الأول لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعى الذى لا يختلف فيه . والأخبار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا فى النمل وحدها " (٢) .

المعنى العام للبسملة : أى أبدأ بتسمية الله جل شأنه ، وذكره قبل أى شئ إجلالاً وتعظيماً لذاته المقدسة ، طالباً العون منه فلا حول ولا قوة إلا بمعونته وتوفيقه فهو وحده القادر المقتدر على كل شئ والإله الواحد المعبود المقصود فى كافة الأمور ، الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شئ ، وعمَّ فضله وإحسانه جميع خلقه .

فضل البسملة : ذكر العلامة الفخر الرازى أن النبى - ﷺ - قال : " من رفع قرطاساً من الأرض فيه " بسم الله الرحمن الرحيم " إجلالاً له تعالى كُتب عند الله من الصديقين ، وخفف عن والديه وإن كانا

---

(١) تفسير ابن كثير - بتصرف ١٦/١ .

(٢) تفسير القرطبى ٦٦/١ ، ٦٧ .

مشركين " (١) ، ويقول صاحب الجامع لأحكام القرآن الكريم : إنه رُوى عن النسائى عن أبى المليح عن ردف رسول الله - ﷺ - قال : إن رسول الله - ﷺ - قال : " إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعِس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب " .

كما رُوى عن وكيع عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم " ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنَّة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار الذى قال الله فيهم : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (المدثر : ٣٠) " (٢) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١/١٧٧ .

(٢) تفسير القرطبى ١/٦٥ .

بعض اللطائف البلاغية المستنبطة من البسملة

قوله " بسم الله " معناه أبدأ باسم الله ، فأسقط منه قوله " أبدأ " تخفيفاً . فإذا قلت بسم الله فكأنك قلت أبدأ باسم الله ، والمقصود منه التنبيه على أن العبد من أول ما شرع فى العمل كان مدار أمره على التسهيل والتخفيف والمسامحة ، فكأنه تعالى فى أول كلمة ذكرها لك جعلها دليلاً على الصفح والإحسان " (١) .

"والباء فى " بسم الله " تتعلق بمحذوف تقديره : " بسم الله أقرأ أو أتلو " لأن الذى يتلو التسمية مقروء ، كما أن المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال : بسم الله والبركات ، كأن المعنى : بسم الله أحل وبسم الله أرتحل ، وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ فى فعله بـ " بسم الله " كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له " (٢) " وقدّر المحذوف متأخراً لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به ، لأنهم كانوا يبدءون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللات ، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل فى قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص والدليل عليه قوله ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ (٣) " وتقدير المتعلق المحذوف متأخراً هنا لا يتعارض مع تقديم نفس المتعلق وهو " اقرأ " على الجار والمجرور فى سورة العلق فى قوله

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١/١٧٤ .
(٢) تفسير الكشاف وحاشيته – ط / دار الريان للتراث ١/٢ .
(٣) السابق ١/٣ .

تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ لأن تقديم الفعل فى آية العلق أوقع لأنها أول سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم " (١) .

" وحذف العامل من " بسم الله " أبلغ لأن المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدعى الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل ، فكأنه لا حاجة إلى النطق به ، لأن المشاهدة والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تبارك وتعالى " (٢) " وإنما لم يقل بالله موضع بسم الله للفرق بين اليمين والتيمن ، أو لتحقيق ما هو مقصود بالاستعانة ههنا فإنها تكون تارة بذاته تعالى وحقيقتها طلب المعونة على إيقاع الفعل وإحداثه بما يتمكن به العبد من أداء ما لزمه ، وهى المطلوبة بإياك نستعين ، وتارة أخرى باسمه عز وعلا وحقيقتها طلب المعونة فى كونه الفعل معتداً به شرعاً فإنه ما لم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم .

ولما كانت كل من الاستعانتين واقعة وجب تعيين المراد بذكر الاسم ، وإلا فالمتبادر من قولنا : بالله عند الإطلاق لاسيما عند الوصف بالرحمن الرحيم هى الاستعانة الأولى " (٣) .

" فإن قلت : فكيف قال الله تبارك وتعالى متبركاً باسم الله أقرأ ؟ قلت : هذا مقول على ألسنة العباد، كما يقول الرجل الشعر على لسان غيره،وكذلك: ﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ –إلى آخره﴾ وكثير من القرآن على هذا المنهاج(٤)، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه ، وكيف يحمدونه ويعظمونه " .

---

(١) تفسير الكشاف بتصرف ٣/١ .

(٢) بدائع الفوائد – ط / مكتبة نزار مصطفى الباز ٢٩/١ .

(٣) تفسير أبى السعود – ط / دار إحياء التراث العربى ٩/١ ، ١٠ .

(٤) الكشاف ٤/١ .

وفى قوله " الرحمن الرحيم " قُدم الرحمن على الرحيم مع كون القياس تأخيره رعاية لأسلوب الترقى إلى الأعلى كما فى قوله : فلان عالم نحرير ، وشجاع باسل ، وجواد فياض لأنه باختصاصه – أى لفظ الرحمن بالله – عز وجل – صار حقيقياً بأن يكون قريناً للاسم الجليل الخاص به تعالى ، ولأن ما يدل على جلائل النعم وعظمائها وأصولها أحق بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها " (١) .

" ووصف الله – عز وجل – بالرحمن الرحيم بمعنى المنعم بعظائم النِعم ودقائقها – وهما صفتان مأخوذتان من الرحمة التى هى عطف وحنو جارٍ على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته السببية لأن الرقة والحنو سبب للإنعام ، كما يجوز أن يجعل مجازاً عن إرادة الإنعام وتكون العلاقة هى السببية أيضاً لأن الرحمن سبب لإرادة الإنعام " (٢) .

وعن السر فى أن أحد الوصفين لا يستغنى به عن الآخر ، ولا يكون الوصف الثانى مؤكداً للأول يقول الإمام الجليل محمد عبده : لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون الثانى مؤكداً للأول ، فإذا سمع العربى وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلاً ، لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً ، لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيراً ، فعندما يسمع لفظ " الرحيم " يكمل اعتقاده على الوجه الذى يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه ، ويعلم أن لله صفة ثابتة هى صفة الرحمة التى عنها يكون أثرها ، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل على

---

(١) تفسير أبى السعود ١١/١ .

(٢) مع القرآن الكريم فى سورة الملك ص ٣٠ .

المدلول ليقوم برهاناً عليه " (١) .

" وفى الجمع بين الرحمن الرحيم نكتته لا تكاد تجدها فى كتاب – كما يقول العلامة ابن قيم الجوزية – وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، فكان الأول للوصف والثانى للفعل ، فالأول دال أن الرحمة صفته ، والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته " (٢) .

---

(١) تفسير فاتحة الكتاب ص ٢٦ .

(٢) بدائع الفوائد بتصرف يسير ١/٢٨ .

سورة الإنسان

مسميات السورة : سُميت هذه السورة الكريمة فى زمن أصحاب رسول الله – ﷺ – بـ " سورة هل أتى على الإنسان " حيث روى البخارى – رضى الله عنه – فى باب القراءة من الفجر من صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : " كان النبى – ﷺ – يقرأ فى الفجر بـ " ألم السجدة " و " هل أتى على الإنسان " (١) وكذلك سميت بالاسم نفسه فى كتب السُّنة الشريفة وعلى رأسها صحيح البخارى – رضى الله عنه – وفى كثير من كتب التفاسير تسمى بسورة " الإنسان " ، وفى بعضها كتفسير البحر المحيط تسمى بسورة " الدهر " لأنه ورد فيها لفظ " الدهر " .

ويقول العلامة الطاهر بن عاشور إن الخفاجى سمَّاها بسورة " الأمشاج " لوقوع لفظ الأمشاج فيها ولم يقع فى غيرها من القرآن الكريم ، وإن الطبرسى ذكر أنها تسمى بسورة " الأبرار " لأن فيها ذكر نعيم الأبرار " (٢) وبالنظر فى هذه المسميات نلحظ أن جميعها مقتبس من الألفاظ الواردة فى السورة الكريمة ، إلا أنه قد غلب عليها اسم " سورة الإنسان " لأن لفظ "الإنسان" ذُكر فيها أكثر من مرة بخلاف غيره من الألفاظ الأخرى ، فضلاً عن كونه أشهر المسميات وأوضحها .

مكية هذه السورة ومدنيتها وعدد آياتها : اختلف العلماء فيها فيرى بعضهم أنها مكية ، وبعضهم يقول إنها مدنية ، والأشهر " والأصح عندهم أنها سورة مكية لأن أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور

---

(١) تفسير التحرير والتنوير بتصرف يسير ٢٩/٣٦٩ .

(٢) السابق نفسه ٢٩/٣٧٠ .

المكية " (١) بل نحن نلمح من سياقها كما ذكر العلامة سيد قطب – أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكى .. تشى بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة ، وصور العذاب الغليظ ، كما يشى به توجيه الرسول – ﷺ – إلى الصبر لحكم ربه ، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ، مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها فى مكة ، مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول – ﷺ – على الحق الذى نزل به ، وعدم الميل إلى ما يدهنون به"(٢).

وهذه السورة الكريمة " عدَّها جابر بن زيد الثامنة والتسعين فى ترتيب نزول السور . وقال : نزلت بعد سورة الرحمان وقبل سورة الطلاق . وهذا جرىً على ما رآه أنها مدنية . فإذا كان الأصح أنها مكية أخذاً بترتيب مصحف ابن مسعود فتكون الثلاثين أو الحادية والثلاثين " (٣) .

وعدد آيات هذه السورة إحدى وثلاثون آية باتفاق العلماء .

مناسبة هذه السورة لسورة القيامة :– " لما تقدم فى آخر القيامة التهديد على مطلق التكذيب وأن المرجع إلى الله وحده والإنكار على من ظن أنه يترك سدى والاستدلال على صحة البعث بخلق الإنسان من نطفة افتتح الله عز وجل هذه السورة بمثل ذلك فقال: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ ... الآية﴾(٤).

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٧٠/٢٩ .

(٢) تفسير فى ظلال القرآن الكريم – ط / دار الشروق ٣٧٧٧/٢٩ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٣٧٠/٢٩ .

(٤) نظم الدُرر فى تناسب الآيات والسور – ط / دار الكتب العلمية ٢٥٩/٨ ، تفسير مجمع البيان للطبرسى – دار مكتبة الحياة ١٣٥/٢٩ .

أغراض السورة : تضمنت هذه السورة الكريمة مجموعة من الأغراض هى :

أولاً : التذكير بتكوين الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ولا موجوداً وتعريف كل إنسان بحقيقة خلقه وأصل نشأته .

ثانياً : تنبيه الإنسان إلى أن الله تعالى خلقه للابتلاء والتكاليف ووهب له السمع والبصر وزوده بالقدرة على المعرفة ثم هداه السبيل وتركه يختار طريق الهدى أو طريق الضلال .

ثالثاً : التأكيد على جزاء الفريقين أصحاب الهدى وأصحاب الضلال والإطناب فى وصف جزاء أهل الهدى من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ... ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا .. ﴾ .

رابعاً : مخاطبة رسول الله – ﷺ – لتثبيته على الدعوة ومواجهته للكافرين والمعرضين ، وإرشاده إلى الصبر على أعباء الرسالة ، وتوجيهه ﷺ إلى المداومة على ذكر الله سبحانه والاتصال به ، وهذا أعظم عون له على الصبر على دعوة الكافرين وتحمل إيذائهم .

خامساً : غفلة المشركين عن الآخرة بحبهم للعاجلة ، وعدم اهتمامهم باليوم الثقيل الذى لا يحسبون حسابه .

سادسا : تذكير المشركين بحقيقة أمرهم السىء ، وحثهم على انتهاز الفرصة المتاحة لهم ، وهى المبادرة إلى مرضاة الله تعالى عسى أن يكونوا من الفائزين .

سابعاً : ختم السورة الكريمة بالتأكيد الحاسم على المشيئة المطلقة لله جلت قدرته ومن ثمَّ فهو سبحانه يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعدَّ لهم عذاباً أليماً .

بين يدى السورة : " السورة الكريمة فى مجموعها هتاف رخى ندى إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله تعالى ، وابتغاء رضاه ، وتذكر نعتمه ، والإحساس بفضله ، واتقاء عذابه ، واليقظة لابتلائه ، وإدراك حكمته فى الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء .. وهى تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشرى أين كان قبل أن يكون ؟ من الذى أوجده ؟ ومن الذى جعله شيئاً مذكوراً فى هذا الوجود ؟ بعد أن لم لكن له ذكر ولا وجود : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ؟ .

تتلوها لمسة بأخرى عن حقيقة أصله ونشأته ، وحكمة الله فى خلقه وتزويده بطاقاته ومداركه : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى ، وتركه بعد ذلك لمصيره الذى يختاره : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

وبعد هذه اللمسات الثلاث الموحية ، وما تثيره فى القلب من تفكير عميق ، ونظرة إلى الوراء . ثم نظرة إلى الأمام ، ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق .. بعد هذه اللمسات الثلاث تأخذ السورة فى الهتاف للإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار .. وترغيبه فى طريق الجنة ، بكل صور الترغيب ن وبكل هواتف الراحة والمتاع والنعيم والتكريم: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

وقبل أن تمضى فى عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبـــرار فى عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعـــيم الهـــانئ الرغيد : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْـــتَطِيرًا * وَيُطْعِمُـــونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ .

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف ، الخائفين من اليوم العبوس القمطرير ، الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام ، يبتغـــون وجه الله وحده ، لا يريدون شكوراً من أحد ، إنما يتقـــون اليـــوم العبـــوس القمطرير ! تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والنعيم اللين الرغيد : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَـــا عَلَـــى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَـــيْهِمْ ظِلَالُهَـــا وَذُلِّلَـــتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْـــوَابٍ كَانَـــتْ قَـــوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهانئ الـــودود اتجـــه الخطاب إلى رسول الله – ﷺ – لتثبيته على الدعوة – فى وجه الإعـــراض والكفر والتكذيب – وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكـــم الله فـــى الأمـــر ، والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْـــكَ

الْقُرْآنَ تَنزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ . ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذى لا يحسبون حسابه ، والذى يخافه الأبرار ويتقونه ، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله ، الذى خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين ، لولا تفضله عليهم بالبقاء ، لتمضى مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم فى الختام بعاقبة هذا الابتلاء : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) .

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن الكريم ٣٧٧٧/٢٩ ، ٣٧٧٨ .

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

(الإنسان ١ : ٣)

التحليل اللفظى :

حيــن : الحين : طائفة محدودة من الزمان شاملة للكثير والقليل " (١) .

الدهر : فى الأصل اسم لمُدّة العَالم من مبدإ وجوده إلى انقضائه ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ (٢) .

وقيل : هو الزمان الممتد الغير المحدود ويقع على مدة العالم جميعاً وعلــى كل زمان طويل غير معين . (٣) .

نطفة : النُّطْفَةُ : الماء الصافى ويُعبَّرُ بها عن ماء الرجل قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ (٤) .

أمْشَاجٍ : " جمع مَشَج بفتحتين كسبب وأسباب أو مَشِج بفتح فكسر ككتف وأكتاف ، وأمشاج أى أخلاط جمع خلط بمعنى مختلط ممتزج . والمراد به هنا مجموع ماء الرجل والمرأة المختلطين الممتزجين .

---

(١) تفسير روح المعانى ١٩٠/٢٩ – دار الفكر العربى .

(٢) المفردات فى غريب القرآن الكريم للراغب الأصفهانى – ط / دار المعرفة ص ١٧٣.

(٣) تفسير روح المعانى ١٩٠/٢٩ .

(٤) المفردات ص ٤٩٦ .

ووقع الجمع صفة المفرد أى لنطفة لأنه فى معنى الجمع أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فاعتبر ذلك فوصف بالجمع " (١) .

نبتليه : أى نختبره وفيما يختبر به وجهان : أحدهما : نختبره بالخير والشر ، والثانى : نختبر شكره فى السَّراء وصبره فى الضَرَّاء .

وقيل : نبتليه : أى نكلِّفه " (٢) .

هديناه السبيل : أى عرَّفناه السبيل " (٣) .

المعنى العام :

يخبرنا الله – عز وجل – فى استهلال هذه السورة الكريمة – بأنه قد أوجد الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه ثم يبين لنا سبحانه حقيقة خلق الإنسان وأصل تكوينه حيث خلقه من نطفة الرجل وماء المرأة بعد امتزاجهما واختلاطهما فى قعر الرحم ثم نقله جل وعلا من طور إلى طور وحال إلى حال إلى أن جعله سوياً سليم الأعضاء ، ثم أمده عز وجل بالسمع والبصر ليتمكن ببصره من مشاهدة دلائل قدراته وبديع صنعه سبحانه ، ويتلقى بسمعه شرائعه ودعوة رسله ، فيصح تكليفه وابتلاؤه ثم عرَّفه سبحانه الطريق الموصل إلى الحالين الشكر والكفر . فإذا اتبع سبيل الهدى والإيمان كان من الشاكرين لإنعام ربه عليه ، وإذا حاد عنه وأعرض فقد ضلَّ وصار من الكافرين المعاندين .

---

(١) تفسير روح المعانى ١٩١/٢٩ ، ١٩٢ وإعراب القرآن الكريم وبيانه – ط / دار ابن كثير ٣١٠/١٠ .

(٢) تفسير القرطبى ٧٩/١٩ .

(٣) تفسير روح المعانى ١٩٣/٢٩ .

النظم البلاغى :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ... ﴾ .

يرى جمهور المفسرين ومن بينهم الزمخشرى والبيضاوى والألوسى وأبو السعود ومن تبعهم أن الاستفهام فى قوله عز وجل : ﴿ هَلْ أَتَى ... ﴾ يفيد التقرير والتقريب حيث جعلوا " هل " بمعنى " قد " فى الاستفهام خاصة ، ومعناها فى هذه الآية " قد أتى ... " ، والأصل " أهلْ " .

واستشهدوا فى ذلك بقول الشاعر :

سائلْ فوارسىَ يَربوعَ بشدتنا أهَلْ رَأوْنَا بِسفْحِ القَاعِ ذِى الأكمِ

والشاهد فيه أن " هل " أصلها " أهلْ " فالهمزة للاستفهام وهل بمعنى " قد " (١) ومعنى التقرير فى الاستفهام بـ " هل أتى " أى الحمل على الإقرار بما دخلت عليه والمقرر به من ينكر البعث وقد علم أنهم يقولون نعم قد مضى على الإنسان حين لم يكن كذلك فيقال فالذى أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحياؤه بعد موته ، ومعنى التقريب أى تقريب الماضى من " الحال " (٢) .

وبالنظر فيما ذكره هؤلاء المفسرون نلحظ أنه غير مقبول ولا مستساغ لأنه لا يتفق مع ما قرره البلاغيون – وهو المعول عليهم فى هذا الشأن – فمن المعلوم عند البلاغيين أن الاستفهام بالهمزة يفيد التصور أو التصديق لأن الهمزة " أم باب الاستفهام " ، والاستفهام " بهل " يفيد التصديق فقط أى أن البلاغيين قد فرقوا بين هذين الاستفهامين ، وهذا الفرق لا يصح ولا

---

(١) ينظر تفسير الكشاف ٦٦٥/٤ ن وتفسير البيضاوى ٤١٢/٥ ، وتفسير روح المعانى ١٨٩/٢٩ ، وتفسير أبى السعود ٧٠/٩ .

(٢) تفسير روح المعانى ١٨٩/٢٩ .

يستقيم مع قول هؤلاء المفسرين بأن الأصل فى " هــل " أهــلْ " . كمــا أن الشاهد الذى ذكروه لا يعد كافياً ولا قاطعاً فى تقرير وإثبات أن الاستفهام بـــ " هل " أصله " أهل " ، وبهذا يكون الاستفهام فى الآية الكريمة حاصلاً بـــ " هل " فقط دون مجامعة الهمزة لها وهو استفهام يفيد مع التقرير معنى التذكير أيضاً أى تذكير كل إنسان وتعريفه بأنه كان معدوماً زمناً طويلاً وشيئاً منسياً غير مذكور فى الخلْق نطفة فى الأصلاب لم يُخلق ولم يُكلف .

هذا " وقد انفرد الإمام البقاعى برأى عجيب (١) – كما يقــول شــيخنا الأستاذ الدكتور صبَّاح دراز – وهو أن الاستفهام فى هذه الآية إنكارى على معنى أنه يترك سُدى " ، " أى ليس الأمر كذلك بل ما أتى عليه شئ من ذلك بعد خلقه إلا وهو مذكور فهو المراد من العالم الذى ما خُلق إلا لأجله فكيف يترك سُدى بلا أمر ونهى وكيف لا يُبعث للجزاء بدليل أن رجلاً قــرأ هــذه الآية عند ابن مسعود – رضى الله عنه – فقال : يا ليت ذلك لم يكن " (٢) ، وقد عقَّب أستاذنا الدكتور " صبَّاح " على هذا الرأى بقوله : إن رأيــه فــى الإنكار غير معروف لأن الآية تومئ إلى أزمنة سبقت خلْقه كان عدماً كقول الله تعالى لزكريا – عليه السلام –: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾(٣)(مريم: من الآية ٩) .

" وأُوثر تقرير هذا المعنى بطريق الاستفهام دون الخبر حيث لم يقل : قد أتى على الإنسان ، لما فى الاستفهام من تحريك المشاعر وإثارة الــذهن

---

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكــريم – أ . د / صــبَّاح دراز – ط/الأمانة ص ١١٨ .

(٢) نَظْمُ الدُّرر فى تناسب الآيات والسور للإمــام البقــاعى – ط / دار الكتــب العلميــة ٢٥٩/٨ ، ٢٦٠ .

(٣) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم ص ١١٨ .

نحو المستفهم عنه وهى عوامل تهيئ النفوس لتلقى المعنى المراد وهى فى حالة نشاط متوقد ، فيقع منها المعنى موقعاً حسناً ويتمكن كل تمكن " (١) .

والتعريف فى " الإنسان " يفيد الاستغراق والشمول لجميع أفراد جنسه والمعنى : هل أتى على كل إنسان حين من الدهر كان فيه شيئاً غير مذكور.

وجملة " لم يكن شيئاً مذكوراً " حُذف منها العائد على كلمة " الدهر " وهو الجار والمجرور " فيه " ، وتقديره " لم يكن فيه شيئاً مذكوراً " وهذا الحذف اقتضاه مقام الكلام " لأنه لما كان المقام مقام نفى اقتضت بلاغة النظم الحكيم المعجز حذفه لأن فى ذلك توكيداً للنفى المراد من الكلام ، أى يؤكد حذف " فيه " أن ذلك الدهر لم يكن ظرفاً للإنسان ولم يكن الإنسان مظروفاً فيه " (٢) . ومما يناظر هذا الحذف فى كتاب الله – عز وجل – قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ (البقرة من الآية : ٤٨) والتقدير : " لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا " .

" وذكر " شيئاً " قبل " مذكوراً " حيث لم يقل : " لم يكن مذكوراً " لأنه لو قيل : " لم يكن مذكوراً " لسلط النفى على الذكر فحسب ، وهذا لا يمنع أن يكون الإنسان كان موجوداً غير أنه غير مذكور ، وهذا فاسد ولكن لما قال : " لم يكن شيئاً مذكوراً " سُلِّط النفى على وجوده أصلاً " . (٣)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ... إلخ ﴾ استئناف بيانى مترتب على التقرير الذى دل عليه ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ

---

(١) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم – أ . د / عبد العظيم المطعنى ٣٣٠/٤ .
(٢) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم – أ . د / عبد العظيم المطعنى ٣٣٢/٤ .
(٣) السابق نفسه ٣٣٢/٤ .

الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (١) . أى أن قوله سبحانه ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ... إلخ ﴾ قد أوضح وبيَّن كيفية خلق الإنسان ليعلمها السامع وتطمئن بها نفسه بعد أن تشوقت إلى معرفة هذا الأمر فقيل لـه : إن الله – عز وجل – قد خلق الإنسان من نطفة بعد أن كان شيئاً غير مذكور ثم استخرج من هذه النطفة إنساناً ، وبهذا فقد ثبت تعلق الخلق بالإنسان بعد أن كان معدوماً .

وتأكيد الكلام بـ " إنَّ " " لتنزيل المشركين منزلة مَنْ ينكر أن الله تعالى خلق الإنسان لعدم جريهم على موجب العلم حيث عبدوا أصناماً لم يخلقوهم " (٢) .

ووضع الاسم الظاهر " الإنسان " موضع المضمر فلم يقل تعالى : " إن خلقناه من نطفة ... " لزيادة التقرير والتمكين فى نفس السامع والمقام يقتضى هذا التمكين ليكون معلوماً ومقرراً لكل من ينكر أن الله تعالى خلق الإنسان وأنعم عليه بنعمة الإيجاد .

" وجاء وصفه عز وجل للإنسان بقوله ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ بصيغة المبالغة ولم يقل فجعلناه : سامعاً مبصراً ، لأن سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلاً وتمييزاً فى المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان "(٣). وقُدم السمع على البصر " لأنه أنفع فى المخاطبات ، ولأن الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية "(٤) كما أن السمع عام فى النور والظلام، والبصر لا يكون إلا فى النور .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٧٣/٢٩ .
(٢) السابق نفسه ٣٧٣/٢٩ .
(٣) السابق نفسه ٣٧٥/٢٩ .
(٤) نظم الدُرر فى تناسب الآيات والسور ٢٦٣/٨ .

ولعله خص هاتين الحاستين " السمع والبصر " بالذكر لأنهما أنفع الحواس الخمس الظاهرة وأشرفها إذ بهما يدرك الإنسان أعظم المدركات .

وقد أُنزلت الكلمتان " سميعاً وبصيراً " منزلة الكلمة الواحدة ولذا لم يقع عطف بينهما لأنهما كالشئ الواحد ، وهاتان الكلمتان كناية عن التمييز والفهم فآلة كل من السمع والبصر سبب فى تحقيق التمييز والمعرفة والفهم للإنسان فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل عليهم السلام وبالبصر يشاهد دلائل وجود الله عز وجل وبديع صنعه جل وعلا فهو الذى أتقن كل شئ صنعاً وهو الحكيم الخبير .

وفى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ تفصيل بعد إجمال حيث تم تعريف الإنسان بالطريق الموصل إلى الحالين " الشُكر " ، و " الكُفر " من جهتين الأولى : بالإجمال فى قوله : " السبيل " والثانية : بالتفصيل فى قوله " إما شاكراً وإما كفوراً " ، و " إمَّا " هنا للتفصيل كما ذكر ابن هشام ، وقد مثَّل لها بهذا القول الكريم (١) وبذلك فإن معنى الآية : إنا عرفنا الإنسان الطريق الذى يصل به إلى هذين الحالين " الشكر " ، و " الكفر " فإذا اتبع سبيل الهدى والإيمان كان شاكراً ، وإلا كان كفوراً ، والتعبير عن هذا المعنى بطريق التفصيل بعد الإجمال يزيد من تقريره فى النفس وتمكينه .

ونلحظ أنه بدأ بالشكر وقدمه على الكفر لأن شكر الله – عز وجل – على فضله ونعمه هو الأصل بدليل ما رواه الشيخان – رضى الله عنهما – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " (٢) .

---

(١) مغنى اللبيب لابن هشام – ط / دار إحياء الكتب العربية ٥٨/١ .
(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى – ط / دار الريان للتراث ٢٦٠/٣ .

ورواه الإمام أحمد عن جـــابر بـــن عبـــد الله – رضـــى الله عنـــه – ولفظه : " كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كافوراً " (١) .

" ولما كان الشكر قلَّ مَنْ يتصف به قال شاكراً فعُبِّر عنه باسم الفاعل للدلالة على قلته لقوله تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ من الآيـــة :١٣) ، ولما كان الكفر كثيراً مَنْ يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان قـــال كفوراً فعُبِّر عنه بصيغة المبالغة " (٢) .

" وجُمع بين الشاكر والكفور ، ولم يُجمع بين الشكور والكفـــور مـــع اجتماعهما فى معنى المبالغة نفياً للمبالغة فى الشكر وإثباتاً لها فى الكفر لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى ، فانتفت عنه المبالغة ، ولـــم تنتـــف عـــن الكفـــر المبالغة ، وإيراد الكفور بصيغة المبالغة لمراعاة الفواصل والإشـــعار بـــأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما وإنما المؤاخذ عليه الكفر المُفْرط " (٣) .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٥٣/٣ .

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه – بتصرف يسير ٣١٧/٢٩ .

(٣) تفسير روح المعانى ١٩٣/٢٩ .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ .

الآية (٤)

* التحليل اللفظى :

أعتدنا : " الاعتداد هو إعداد الشئ حتى يكون عتيداً متى احتيج إليه ، والمعنى : أى هيأنا وأحضرنا بشدة وغلظة " (١) .

سلاسل : " واحدته سِلْسِلَةُ والسِّلْسِلةُ : دائرةُ من حديدٍ ونحوه من الجواهر ، والمعنى : القيود المصنوعة من حَلق الحديد يُقيد بها الجَناة والأسرى " (٢) .

الأغلال : " جمع غُلٍّ بضم الغين ، وهى جامِعَةُ تُوضَعُ فى العُنُقِ أو اليد ، والأغلالُ هى الجوامِعُ تجمعُ أيديَهُم إلى أعناقِهِمْ " (٣) .

* المعنى العام :

إنا هَيَّأنا وأحضرنا للكافرين من الناس سلاسل وأغلالاً يُقادون بها ويقيدون إذلالاً لهم عند سَوْقهم إلى نار جهنم المستعرة ليكونوا لها حطباً ووقوداً جزاءً على كفرهم وإعراضهم عن السبيل القويم .

لطيفة : نلحظ فى هذه الآية الكريمة الترقى فى التعبير عن المعانى حيث بدأ بأخف العذاب للكافرين وهو تقييد أيديهم بالسلاسل فالأصعب عذاباً وأشده إهانة وإذلالاً وهو شدُّ أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال ثم النهاية الأشد ألماً وعذاباً وهو إلقاؤهم فى نار جهنم المستعرة ليكونوا وقوداً لها ، وبناء الكلام على هذه الطريقة يثير التأمل والتدبر .

" وتقديم وعيدهم مع تأخر ذكرهم لأن الإنذار أهم وأنفع وأنسب بالمقام وحقيق بالاهتمام " (٤) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٤٠/٢٩ ، ونظم الدرر ٢٦٦/٨ .

(٢) اللسان مادة : سلسل ، والتحرير والتنوير ٣٧٧/٢٩ .

(٣) اللسان مادة : غلل .

(٤) تفسير روح المعانى ١٩٣/٢٩ ، تفسير البيضاوى ٤١٨/٥ .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا ﴾ .

(الآيات ٥ : ٩)

التحليل اللفظى :

مِنْ كَأْسٍ : " قال الزجاج : الإناء إذا كان فيه الشراب فإذا لم يكن لم يسم كأساً وقال الراغب الكأس : الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً والمشهور أنها تطلق حقيقة على الزجاجة إذا كانت فيها خمراً ومجازاً على الخمر بعلاقة المجاورة والمراد بها ههنا قيل الخمر فمن تبعيضية أو بيانية وقيل الزجاجة التى فيها الخمر فمن ابتدائية .

مزاجها كافوراً : المزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به فهو اسم آلة ، وكافور على ما قاله الكلبى علم عَيْن فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور وعرفه وبرده .

والمعنى أن ذلك الشراب يكون ممزوجاً بماء هذا العين " يفجرونها تفجيراً " أى يجرونها حيث شاؤا من منازلهم إجراءً سهلاً لا يمتنع عليهم .

شَرُّهُ : عذابه .

مُسْتَطِيراً : فاشياً منتشراً فى الأقطار غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو أبلغ من طار لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

ويُطْعِمُونَ الطعامَ على حُبِّهِ : أى كائنتين على حب الطعام أى مع اشـــتهائه والحاجة إليه .

الأسير : هو المأخوذ من قومه المملوكة رقبته الذى لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة " (١) .

المعنى العام :

تشتمل هذه الآيات الكريمة على ما أعده الله تعالى لعبـــاده الشـــاكرين المطيعين فى الجنة من صنوف النعم والملذات فشرابهم من كـــأس مملـــوءة بخمر مخلوطة بالكافور الطيب الرائحة ، وهذا الشـــراب الطيـــب الطهـــور تجرى به عين فى الجنة يستقون منها بسهولة حيث أرادوا من مساكنهم بـــلا حد ولا نضوب ، وذلك لأنهم كانوا يوفون بما أوجبوه على أنفسهم من نـــذر دون أن يُخلفوا نذورهم ويطعمون الطعام على قلته وحبهم إيـــاه للمســـاكين واليتامى والأسرى دون أن ينتظروا منهم أى مكافأة أو ثناء وإنما يبغون من ذلك مرضاة الله عز وجل والفوز بثوابه والنجاة من عذابه .

النظم البلاغى :

" من كأس " " المشهور أن الكأس تطلق حقيقة على الزجاجة إذا كانت فيها خمر ومجازاً على الخمر بعلاقة المجاورة والمراد بهـــا ههنـــا " (٢) ، والمعنى يشربون من خمر . وبهذا ففى قوله " كأس " مجاز مرسل علاقتـــه المجاورة ، ومن ثم تكون " من " تبعيضية " وليست بيانية .

---

(١) تفســـير روح المعـــانى ١٩٤/٢٩ ، ١٩٥ – وتفســـير الفخـــر الـــرازى ٢٤٠/٢٩ ، ٢٤٥ .

(٢) تفسير روح المعانى بتصرف يسير ١٩٤/٢٩ .

وفى قوله " **عباد الله** " إظهار فى مقام الإضمار حيث لم يقل : "عباده" وذلك للتنويه بهم والاعتناء بشأنهم وتشريفهم بإضافة عبوديتهم إلى الله عـز وجل .

وإيثار التعبير بصيغة المضارع فى قوله تعالى : ﴿ يُوفُـونَ بِالنَّـذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا. وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ﴾ للدلالة على استمرار وتجدد قيامهم بهذه الأفعال دون انقطاع فهم دائماً يوفون بما أوجبوه على أنفسهم مـن العبـادة والعمل الصالح وفعل القربات ، وكذلك فإن خوفهم يتجدد وخشيتهم مسـتمرة من شر ذلك اليوم العصيب وهذا أدل دليل على صدق إيمانهم وحسن عقيدتهم واجتنابهم المعاصى ثم إنهم لا يركنون إلى الدنيا لكـونهم يقـدمون الطعـام باستمرار لكل المحتاجين على حسب ما يتيسر لهم مع حبهم لهـذا الطعـام وحاجتهم إليه .

والتعريف فى " النذر " للعموم والشمول إذ يشمل ويعم كل نذر " وهذا كناية عن وفائهم بجميع أنحاء العبادة لأن مَنْ وفى بما أوجبه على نفسه كان بما أوجبه الله من غير واسطة أوفى " (١) .

وفى قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا ﴾ مجاز عقلى جرى فى تعلق اليوم بالخوف لأنهم إنما يخافون ما يجرى فى ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السيئة بالعقاب فعلق فعل الخوف بزمـان الأشـياء المخوفـة " (٢) فعلاقته الزمانية .

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٢٦٧/٨ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣٨٣/٢٩ .

" وذُكر الفعل " كان " للدلالة على تمكن الخبر من المخبر عنه وإلا فإن شر ذلك اليوم ليس واقعاً فى الماضى وإنما يقع بعد مستقبل بعيد ، ويجوز أن يجعل ذلك من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيهاً على تحقق وقوعه " (١) .

" والتصريح بلفظ الطعام مع أنه معلوم من فعل " يُطعمون " توطئةُ ليبنى عليه الحال وهو " على حبه " فإنه لو قيل : ويطعمون مسكيناً ويتيماً وأسيراً لفات ما فى قوله "على حبه" من معنى إيثار المحاويج على النفس (٢) كما أن ذكر الطعام بعد " يطعمون " يفيد التأكيد على مخافة وتعظيم فعلهم مع استحضار هيئة الإطعام حتى كأن السامعين يشاهدون تلك الهيئة .

وخُصَّ " المسكين واليتيم والأسير " بالذكر دون غيرهم لأن هؤلاء الثلاثة من أهم من تجدر الصدقة عليهم فالمسكين عاجز عن اكتساب قوته بنفسه واليتيم مات من يكتسب له وبقى عاجزاً عن الكسب لصغره والأسير لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة ولا نفعاً ولا ضراً ومن ثمَّ فهو لا يقدر على الكسب والسعى فى طلب الرزق .

وفى قوله ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ قصر بطريق " إنما " وهو قصر " قلب " مبنى على تنزيل هؤلاء المطعَمِين منزلة مَنْ يعتقد أن من أطعمهم يَمُنُّ عليهم ويطلب منهم المكافأة والجزاء والشكر جرياً على ما كان متعارفاً عندهم فى الجاهلية .

وقوله عز وجل ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا ﴾ تقرير لمغزى هذا القصر وتأكيد قاطع على أن إحسانهم وإطعامهم لهؤلاء المحتاجين إنما كان

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٨٣/٢٩ .

(٢) نفسه ٣٨٤/٢٩ .

استجابة – فقط – لأمر الله عز وجل وتقرباً إليه سبحانه وطمعاً فـــى الفـــوز بثوابه والنجاة من عقابه ، وليس لغرض دنيوى وهو طلب المكافأة والجـــزاء والشكر منهم .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾.

(الآيات ١٠ : ١٧)

التحليل اللفظى :

" عَبُوسًا " : العَبُوسُ قُطُوبُ الوَجْهِ من ضِيق الصَّدْرِ ، والمراد هنا أى تعبس فيه الوجوه من شدة هَوْله .

قَمْطَرِيرًا : شديد العبوس ويقال شديداً صعباً وقيل طويلاً .

" نَضْرَةً وَسُرُورًا " : أى حُسْناً ونعمة تظهر على وجوههم وسُروراً دائماً فى قلوبهم .

" جَنَّةً وَحَرِيرًا " : أى بُستاناً عظيماً جامعاً يأكلون منه ما شاؤا ، وحريراً يلبسونه ويتزينون به .

" شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا " : أى أن هواءها معتدل لا حر شمس يحمى ولا شدة برد يؤذى .

" وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا " : أى سُخرت ثمارُها لمتناولها وسهل أخذها وتناولها تسهيلاً عظيماً .

" قَوَارِيرَا " : جمع قارورة وهى إناء رقيق من الزجاج يوضع فيه الأشربة .

" مِزَاجُهَا " : مزج الشرابَ خلطَهُ والمِزاجُ ما يُمْزَجُ به .

" زَنجَبِيلًا " : وهو عروق تسرى فى الأرض وليس بشجرة وكانت العرب تحيه وتستلذ الشراب الممزوج به لهضمه وتطييبه الطعم والنكهة " (١) .

المعنى العام :

ورد فى ختام الآيات السابقة أن الأبرار المتقين قد ألزموا أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وفى صدر هذه الآيات الكريمة ذكر هؤلاء الأبرار السبب فى ذلك وهو أنهم يخافون من ربهم يوم القيامة ذلك اليوم العصيب الذى تعبس فيه وجوه الكافرين من هوله وشدته . فما كان من ربهم عز وجل بسبب خوفهم إلا أن وقاهم ودفع عنه شرَّ ذلك اليوم وشدته وعذابه وآتاهم نضرة وحُسناً وبهاءً فى وجوههم ، وفرحاً وسروراً فى قلوبهم ونفوسهم . وجزاهم وأعطاهم بسبب صبرهم بُستاناً مثمراً جامعاً فى الجنة يأكلون منه ما يشتهون وثياباً من حرير رقيق يلبسونها ويتزينون بها ، وحباهم – كذلك – عز وجل – فى الجنة بالراحة التامة حيث يجلسون ويضطجعون على أسِرَّةٍ عالية وفُرش فاخرة فى جو بديع دافئ فى غير حر ، ندى فى غير برد فلا شمس تلهب النسائم ولا زمهرير يؤذى الأبدان ، وزيادة فى ذلك النعيم الدائم أن ظلال أشجار هذا البستان وكذا ثماره قريبة منهم يستظلون بظلها ويقطفون ثمارها بسهولة ويسر متى شاؤا حيث يتناولها القائم والقاعد والمضجع لا يرد أيديهم عنها بُعدُ ولا شوك ، ويدور الخدم – الذين لا يُحصون كثرة – حول هؤلاء الأبرار إذا أرادوا الشراب بأوانى وأكواب من فضة صافية بيضاء

---

(١) تفسير روح المعانى ١٩٧/٢٩ : ٢٠٢ ، ونظم الدرر ٢٦٩/٨ ، ٢٧١ والمفردات ٣٢٠ ، ٤١٣ ، ٤٦٧.

رقيقة جُعلت على قدر حاجتهم من الرِّىِّ دون زيـادة أو نقـص ويسـقونهم خمراص ممزوجة بالزنجبيل الطيب الرائحة وهو شراب غايـة فـى اللـذة والنكهة جزاءً لهم على ما فعلوه فى الدنيا ابتغاء مرضاة الله سبحانه .

النظم البلاغى :

بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا ... وَسُرُورًا ﴾ " لف ونشر معكوس والداعى إلـى عكـس النشر مراعاة حسن تنسيق النظم ليكون الانتقال من ذكر الإطعام إلـى مـا يقولونه للمطعَمين ، والانتقال من ذكر خوف يوم الحساب إلى بشارتهم بوقاية الله تعالى إياهم من شر ذلك اليوم وما يلقونه فيه مـن النضـرة والسـرور والنعيم " (١) .

وقوله عز وجل : ﴿ يَوْمًا عَبُوسًـا ﴾ يقـول فـى تفسـيره العلامـة الزمخشرى : وصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين : أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء ، كقولهم : نهارك صائم : روى أن الكافر يعـبس يومئـذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، وأن يشبه فى شدته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل (٢) . انتهى .

وبيان ذلك أن المجاز فى هذا القول الكريم يكون من طريقين :

الأول : أن ذلك اليوم موصوف بالعبوس لعبوس وجوه أهله فيه مـن الأشقياء والكافرين نظراً لشدة هذا اليوم وهوله وطوله حيث روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران . ، وبهذا يكـون وصف يوم القيامة بالعبوس مبنى على كونه مجازاً عقلياً علاقته الزمانية لأن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير بتصرف يسير ٣٨٦/٢٩ .

(٢) تفسير الكشاف ٦٦٩/٤ .

اليوم فى ذاته لا يوصف بالعبوس أو بغيره وإنما الذى يوصف بـــذلك هـــو أهله ، ومن نظائر هذا المجاز فى كتاب الله عز وجل قوله جل شأنه ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ (المدثر : ٩) ، وفى غير القرآن الكريم قولهم " نهـــاره صائم " و " ليله قائم " والأصل صائم فيه أهله ، وقائم فيه أهله ، والعلاقـــة الزمانية فى كل هذه الأمثلة .

الثانى : أن يكون وصف يوم القيامة بالعبوس على أنه مجاز استعارى مبنى على معنى الاستعارة المكنية حيث شُبه يوم القيامة فى شدته وضراوته على الكافرين بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل ثم حُذف المشبه به ورُمـــز إليه شئ من لوازمه وهو عُبوس الوجه وإثبات هذا العبوس ليـــوم القيامـــة استعارة تخييلية .

والأرجح هو الأول بدليل ما ذكره الإمام الزمخشرى – بعد ذلك – فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ حيث قال : " أى أعطـــاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة فى الوجوه وسروراً فى القلوب وهذا يدل على أن اليوم موصوف بعبوس أهله " (١) .

ونلحظ أن بين قوله تعالى ﴿ فَوَقَاهُمُ ﴾ ، و ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ جناساً محرَّفـــاً لاختلاف هاتين الكلمتين فى هيئة الحروف أى حركاتها وسكناتها .

والتنكير فى قوله " سروراً " للتفخيم والتعظيم أى سروراً عظيماً يملأ قلوبهم ونفوسهم .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ استعارة تصريحية تبعيـــة لجريانها فى الفعل " ذُللت " حيث استُعير التذليل للتيسير فشُبه سهولة ويســـر

---

(١) تفسير الكشاف ٤/٦٧٠ .

قَطْف وأخذ ثمار هذه الأشجار فى الجنة بلا كلفة متى شاؤا بسهولة ويسر ركوب الدابة الذلُول الطيِّعةُ لصاحبها متى شاء .

وقوله " تذليلاً " مفعول مطلق مؤكد لهذا التذليل أى تذليلاً شديداً لكل من يريد منهم أخذها على أى حالة كان عليها فإن كل قاعداً أو مضطجعاً تدلت إليه وإن كان قائماً ارتفعت إليه ، وهذا جزاء لهم على ما كانوا يذللون أنفسهم فى الدنيا لأمر الله جل فى علاه .

" وعطف " أكواب " على " آنية " من عطف الخاص على العام لأن الأكواب تحمل فيها الخمر لإعادة ملء الكؤوس . ووصفت هنا بأنها من فضة ، أى تأتيهم آنيتهم من فضة فى بعض الأوقات ومن ذهب فى أوقات أخرى كما دلَّ عليه قوله تعالى فى سورة الزخرف ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ لأن للذهب حُسناً وللفضة حُسناً فجُعلت آنيتهم من المعدنين النفيسين لئلا يفوتهم ما فى كلٍ من الحُسن والجمال " (١) .

وفى تكرير لفظ " قواريرا " تأكيد لفظى وزيادة تأكيد وتقرير على رقة وبياض تلك الأكواب وشفافيتها وبريقها حتى كأنها تشف عما بداخلها .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٩٢/٢٩ .

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْـدَانٌ مُّخَلَّـدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًـا كَبِيـرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

(الآيات ١٨ : ٢٢)

التحليل اللفظى :

" **سَلْسَبِيلًا** " : السلسبيل والسلسل والسلسال ما كان من الشراب غايـة فـى السلاسة ، زيدت فيه الباء دلالة على المبالغة فى هذا المعنى .

" **وِلْدَانٌ** " : جمع وَلِيدُ وهو المولُودُ حِينَ يُولَدُ ، والولْدانُ أى الغِلمان وهم فى سِنِ مَنْ هو دون البلوغ .

" **مُّخَلَّدُونَ** " : أى أنهم مزينون بالخلد وهـو الحلـق والأسـاور والقرطـة والملابس الحسنة .

" **سُندُسٍ** " : وهو ما رَقَّ من الحرير .

" **وَإِسْتَبْرَقٌ** " : وهو ما غلظ فى الديباج .

" **شَرَابًا طَهُورًا** " : أى ليس هو كشراب الدنيا سواء كان من الخمر أو مـن الماء أو من غيرهما ، بل هو بالغ الطهـارة والنزاهـة مـن الخبائث " (١) .

المعنى العام :

وزيادة فى المتاع والنعيم المقيم فى الجنة لهؤلاء الأبرار المتقين فـإن هناك عيناً فى الجنة يُمزج فيها شرابهم كما يُمزج بالماء تسمى سلسبيلاً لشدة

---

(١) نظم الدرر ٢٧٢/٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ – اللسان ٤٩١٤/٦ .

عذوبتها ولذة طعمها وسمو صفائها واستساغتها لدى الشـــاربين ، ويطـــوف على هؤلاء الأبرار بالشراب وغيره من الملاذ غِلمان فى سن صـــغيره دون البلوغ دائمون على تلك السن لا تزيد أعمارهم عنها ، وقد لبســـوا أحســـن الملابس وتزينوا بأبهى الحُلق والأساور حتى إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً من شدة بياضهم وصفاء ألوانهم ولمع أنوارهم وكثرة عددهم وانتشارهم هنـــا وهناك لخدمة هؤلاء الأبرار المتقين وقضاء حوائجهم ، وإذا نظر الرائى إلى ما أُوتى هؤلاء الأبرار فى الجنة لم ير إلا نعيماً كثيراً وملكاً كبيراً واسعاً لا غايةَ له .

وأهل الجنة من الخدم والمخدومين فوقهم ثياب خضر من سندس وهو الحرير الرقيق ، وإستبرق وهو الحرير السميك أى من النوعين زيادة فـــى تكريمهم ، وقد تزينوا بأساورٍ فضية صافية لامعة وقد أمر ربهم عز وجـــل بسقيهم شراباً طاهراً من الأقذار والأدران لم تمسه الأيدى ولم تدنسه الأرجل كخمر الدنيا .

ثم يُقال لهؤلاء الأبرار المتقين إن هذا النعيم والمتاع الدائم المقيم كان لكم جزاءً على أعمالكم فى الدنيا التى كنتم تُجاهدون فيها أنفسكم عن هواهـــا إلى ما يرضى ربكم وكان سعيكم مرضياً مقبولاً مُثاباً عند ربكم عز وجل .

النظم البلاغى :

" وُصِف " الولدان " بأنهم " مخلدون " للاحتراس مما قد يوهمه اشتقاق لفظ " ولدان " من أنهم يشيبون ويكتهلون ، أى لا تتغير صفاتهم فهم ولـــدان دوماً " ([1]) .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ تشبيه حسن

([1]) تفسير التحرير والتنوير بتصرف يسير ٣٩٧/٢٩ .

حيث شُبه هؤلاء الولدان باللؤلؤ المنثور فى حُسن المنظر وصفاء اللون مع الانتشار والتفرق .

وحُذف مفعول " رأيت " الأولى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ ... ﴾ لقصد العموم والشمول فى المفعول والامتناع عن أن يقصره السامع على مال يذكر معه دون غيره مع الاختصار والإيجاز فى الكلام .

والمعنى : أنك إذا صدرت منك رؤية فى الجنة رأيت كيت وكيت .. من النعيم الكثير والملك الكبير الذى لا غاية له ، ووما يناظر هذا الحذف فى كتاب الله جل شأنه قوله جل وعلا : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ (يونس من الآية : ٢٥) أى يدعو كل أحد ..

و " طهوراً " فى قوله عز وجل ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ احتراس مما يوهمه شربهم من الكأس الممزوجة بالكافور والزنجبيل من أن يكون فيها ما فى أمثالها المعروفة فى الدنيا ومن الغَوْل وسوء القول والهذيان ، فعبر عن ذلك بكون شرابهم طهوراً بصيغة المبالغة فى الطهارة وهى النزاهة من الخبائث ، أى منزها عما فى غيره من الخباثة والفساد . " (١)

" وأُسند سقيه إلى ربهم إظهاراً لكرامتهم ، أى أمر هو سبحانه بسقيهم كما يقال : أطعمهم ربُّ الدار وسقاهم " (٢) .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ مجاز عقلى علاقته الفاعلية حيث أُسند اسم المفعول " المشكور " إلى " السعى " إسناداً مجازياً والأصل : مشكور ساعِيه .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير بتصرف يسير ٢٩/٤٠٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٩/٤٠٠ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ .

(الآيات ٢٣ : ٢٦)

التحليل اللفظى :

" **لِحُكْمِ رَبِّكَ** " : أى لقضاءِ ربك .

" **آثِمًا** " : أى داعياً إلى إثم سواء كان مجرداً عن مطلق الكفر أو مصاحباً له .

" **كَفُورًا** " : أى مبالغاً فى الكفر وداعياً إليه .

" **بُكْرَةً** " : أول النهار أى عند قيامك من منامك .

" **أَصِيلًا** " : آخر النهار أى عند انقراض نهارك (١) .

المعنى العام :

لقد ادَّعى الكافرون أن القرآن الكريم أتى به النبى - ﷺ - من تلقاء نفسه وأنه ضرب من الكهانة والسحر . فأراد الله - عز وجل - فى مستهل هذه الآيات الكريمة - أن يدحض هذه الأكاذيب وينفيها ويؤكد على أن القرآن الكريم منزل من عنده سبحانه على رسوله الأعظم - ﷺ - تنزيلاً متدرجاً مفرقاً لحكمة بالغة اقتضت ذلك ، ومما تقتضيه تلك الحكمة تأخير نصرته ﷺ على أعدائه من أهل مكة ، ولذا فعليه بالصبر على فرط إيذائهم له وترك مقاتلتهم ولا يطع منهم مَنْ يدعو إلى إثم أو مبالغاً فى الكفر ، وسينزل عليك الأمر بقتالهم والانتقام منهم بعد حين فلا تعجل ، وكن ذاكراً لاسم ربك

---

(١) تفسير القرطبى ٩٧/١٩ ، ونظم الدرر ٢٧٦/٨ .

سبحانه ومصلياً لصلاة الصبح فى أول النهار وصلاتى الظهر والعصر فـــى آخره .

ومن الليل صلاتى المغرب والعشاء ثم عليك بعد ذلك أن تقضى فتـــرة طويلة من الليل فى التهجد والتقرب إليه سبحانه عســـى أن يبعثـــك مقامـــاً محموداً كما قال جل شأنه فى آية أخرى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّـــكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء : ٧٩) .

النظم البلاغى :

فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴾ قصر بطريق ضمير الفصل " نحن " المتوسط بين اسم " إنَّ " وخبرها وهو قوله " نزلنـــا " فقُصِر تنزيل القرآن الكريم تنزيلاً مفرقاً على الله تعالى وحده دون غيـــره ، وكأنه قيل : ما نزّل عليك القرآن تنزيلاً مفرقاً إلا أنا لا غيرى .

وقد أفاد هذا القصر التأكيد القاطع على اختصاص الله – عز وجـــل – وحده بتنزيل ذلك الكتاب الكريم متفرقاً ليتقرر فـــى نفـــس النبـــى – ﷺ – ويرسخ أنه إذا كان الله تعالى هو المُنزّل له فإن هذا التنزيـــل لـــم يكـــن إلا بالحكمة البالغة التى اقتضت تنزيله متدرجاً متفرقاً .

وفى هذا القصر كذلك تعريض بالكافرين الذين قالوا – كما حكى عنهم القرآن الكريم:﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (الفرقان من الآية:٣٢) حيث ادَّعوا أن القرآن الكريم بنزوله متفرقاً آية بعد آية لا يُعد من عند الله – جل شأنه – وإنما من عند محمد – ﷺ – ومن تلقاء نفســـه دون أن يُـــدركوا حكمة الله سبحانه من ذلك والتى تقتضى تخصيص كل شئ بوقت معـــين لا يعلمه إلا هو العليم الخبير .

وهناك لطيفة فى الآية السابقة وهى أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴾ أى هديناك إلى هذه الأسرار ، وشرحنا صدرك بهذه الأنوار ، وإذ قد فعلنا بك ذلك فكن منقاداً مطيعاً لأمرنا ، وإياك أن تكون منقاداً مطيعاً لغيرنا " (١) .

وفى قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ لطيفة أخرى وهى أن كل أعدائه ﷺ كفرةٌ فما معنى القسمة فى قوله تعالى : ﴿ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ ؟ والجواب أن " الكفور " أخبث أنواع الآثم ، فخصه بالذكر تنبيهاً على غاية خبثة ونهاية بُعده عن الله سبحانه وتعالى " (٢) .

كما أن " مقتضى الظاهر أن يقال : " ولا تطعهم ، أو " ولا تطع منهم أحداً " ، فعُدِل عنه إلى " آثماً أو كفوراً " للإشارة بالوصفين إلى أن طاعتهم تفضى إلى ارتكاب إثم أو كفر ، لأنهم فى ذلك يأمرونه وينهونه غالباً فهم لا يأمرون إلا بما يلائم صفاتهم " (٣) .

وقُدِم الظرف " الليل " فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ... ﴾ للاهتمام بشأن الليل والاعتناء به " لما فى صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص لله عز وجل ومزيد الفضيلة لأن الالتفات فيه إلى جانب الحق أتم لزوال الشاغل للحواس من حركات الناس وأصواتهم وسائر الأحوال الدنيوية ، فكان أبعد عن الرياء فكان الخشوع فيه واللذة التامة بحلاوة العبادة أوفَى " (٤) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٥٩/٢٩ ، ٢٦٠ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ٢٥٩/٢٩ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٤٠٤/٢٩ .

(٤) نظم الدرر ٢٧٧/٨ .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أُطلق الجزء وهو " السجود " وأُريد الكل وهى " الصلاة " ، والمعنى فصل له سبحانه صلاتى المغرب والعشاء ، وفى هذا المجاز إشارة إلى فضل السجود وأهميته فى الصلاة وكأن الصلاة هى السجود .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ صدق الله العظيم

(الآيات ٢٧ : ٣١)

التحليل اللفظى :

" الْعَاجِلَةَ " : الحياة الدنيا وما فيها من أعراض دُنْيَوية زائلة .

" يَوْمًا ثَقِيلًا " : هو يوم القيامة وثقيلاً : أى شديداً جداً لا يطيقون حمل ما فيه من المصائب بسبب أنهم لا يعدون له عُدَّته .

" شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ " : أى قوينا ربط مفاصلهم الظاهرة والباطنة بالأعصاب على وجه الإحكام بعد كونهم نطفة أمشاج فى غاية الضعف .

المعنى العام :

يخبرنا الله – جل شأنه – فى مطلع هذه الآيات الكريمة بأن الكافرين قد دَأَبُوا على حُب الدنيا وزينتها الزائلة وملذاتها الفانية ، وتركْ العمل والاستعداد ليوم القيامة الذى ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير بعد الحساب العسير .

وعلى الرغم من أن الله – عز وجل – قد خلق هؤلاء الكافرين وأحكم خلقهم ووهبهم القوة والمقدرة فى أجسامهم لأجل عبادته وطاعته إلا أنهم غفلوا عن طاعته وانصرفوا عن عبادته ولم يعدوا لهذا اليوم العصيب عُدَّته ولو شاء سبحانه وتعالى لأهلكهم جميعاً انتقاماً منهم وجاء بأمثالهم بدلاً منهم يطيعونه ولا يعصونه .

ثم يُذكرهم الله تعالى بالمواعظ التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة وكل آى القرآن الكريم لعلهم يعتبرونها وينتفعون بها فمن شاء منهم أن يتخذ إليه سبحانه وتعالى سبيلاً يوصله إلى الفوز بثوابه ومرضاته اتخذه بالتقرب إليه عز وجل بأفعال الطاعات وعمل الصالحات ، وينبههم كذلك إلى شئ بالغ الأهمية وهو أنهم لا يشاءون شيئاً من العمل بطاعته فى أى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله تعالى فهو الذى بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله ، ولا أمر لأحد معه إنه كان عليماً بأحوالهم وما يكون منهم حكيماً فى تدبيره وأمره وصنعه ، ومن ثمَّ فهو عز وجل يدخل فى رحمته مَنْ يشاء من عباده الذين وفقهم إلى ما يُدخلهم الجنة من الإيمان به والهدى والطاعة ، والظالمين المشركين الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر أعدَّ لهم فى الآخرة عذاباً مؤلماً موجعاً ، وختام هذه السورة الكريمة يلتئم مع مطلعها ويُصور نهاية الابتلاء للإنسان الذى خلقه الله تعالى من نطفة أمشاج ووهبه السمع والبصر وهداه السبيل فهو إما كافر مغضوب عليه ، وإما شاكر منظور إليه بعين الرضى فسبحان الذى خلقنا ثم يميتنا ثم يحيينا بقدرته ، وكان الله على ذلك قديراً .

النظم البلاغى :

﴿ إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ ، و ﴿ يَذَرُونَ ﴾ بصيغة المضارع يدل على تجدد واستمرار محبة هؤلاء الكافرين للدنيا فى كل وقت لأنهم يؤثرونها على الآخرة . كما أنهم مستمرون دائماً على إعراضهم وغفلتهم عن يوم القيامة وتركهم الاستعداد والعمل له ، وأنهم قد دَأبوا على ذلك لعدم إيمانهم بحلول ذلك اليوم فكيف يعدون له عُدَّته .

" وقال ﴿ وَرَاءهُمْ ﴾ مع أن يوم القيامة لم يقع بعد – ولم يقل " قُدَّامهم " لعدة وجوه – كما يقول العلامة الفخر الرازى – **أحدها** : لما لم يلتفتوا إليه ، وأعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم ، **وثانيها** : المراد ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل فأسقط المضاف ، **وثالثها** : أن وراء تستعمل بمعنى قُدَّام كقوله تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾، ﴿ وكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ ﴾ (١).

وفى قوله جل شأنه : ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ استعارة تصريحية أصلية حيث شُبه شدة يوم القيامة وهَوْله وكرْبه على الكافرين بثقل شئ ضخم ثقيل لا يُستطاع حَمْله ، وهذه الاستعارة تصور شدة ما يحدث فى ذلك اليوم من المتاعب والأهوال والكروب التى لا يُطيقها أحدٌ .

ومن نظائر هذه الاستعارة فى كتاب الله تعالى قوله عز وجل عن شدائد الساعة وأهوالها ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الأعراف من الآية : ١٨٧) .

" وافتتاح قوله عز وجل ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ... ﴾ بالمبتدأ " نحن " المخبر عنه بالخبر الفعلى " خلقناهم " دون أن يُفتتح بـ" خلقناهم" أو " نحن خالقون " لإفادة تقوية الخبر وتحقيقه بالنظر إلى المعنيِّين بهذا الكلام وإن لم يكن خطاباً لهم ولكنهم هم المقصود منه وتقوية الحكم بناءُ على تنزيل أولئك المخلوقين منزلة مَنْ يشك فى أن الله تعالى خلقهم حيث لم يجْرؤوا على موجب العلم فأنكروا أن الله سبحانه يُعيد الخلق بعد البِلَى ، فكأنهم يسندون الخلق الأول لغيره جل فى علاه " (٢) .

وحُذف مفعول المشيئة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا ... ﴾ لدلالة

---

(١) تفسير الفخر الرازى – بتصرف ٢٦٠/٢٩ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير – بتصرف يسير ٤٠٩/٢٩ .

جواب " إذا " عليه وهو قوله " بدلنا " والتقدير " وإذا شئنا استبدالهم بدلنا أمثالهم تبديلاً " ، والغرض من حذف هذا المفعول هو البيان بعد الإبهام فالسامع إذا سمع قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا ﴾ علِمَ أن مشيئته عز وجل قد تعلقت بشئ ما فيقع فى نفسه أن هنا شيئاً مبهماً تعلقت به تلك المشيئة لا يدرى ما هو فإذا ذكر الجوابُ " بدلنا " استبان هذا الشئ واتضح بعد أن كان مبهماً فيكون ذلك أوقع فى نفس السامع وأمكن .

وأُوثرت " إذا " فى هذا التعليق على " إنْ " لأن حرف " إنْ " لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ، فلا يقال : إن طلعت الشمس أكرمتك ، أما حرف " إذا " فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع ، تقول : آتيك إذا طلعت الشمس ، فههنا لما كان الله تعالى عالماً بأنه سيجئ وقت يُبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم فى الخلقة وأضدادهم فى الطاعة ، لا جرم حَسُن استعمال حرف " إذا " (١) .

وقوله تعالى : ﴿ تَبْدِيلًا ﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله يدل على أنه تبديل محقق واقع لا ريب فيه إذا شاء الله سبحانه إهلاكهم ، وهذا أدل دليل على طلاقة قدرته عز وجل .

وحُذف مفعول " شاء " فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ للاختصار والإيجاز فى الكلام ، وتقديره : " فمن شاء الخيرَ وحُسنَ العاقبة لنفسه اتخذ إلى ربه سبيلاً " .

وفى قوله عز وجل : ﴿ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ استعارة تصريحية أصلية حيث استُعير السبيلُ للطاعة والأعمال الصالحة الموصلة للفوز بالجنة ونعيمها . فشُبهت أفعال الطاعة وكل ما يتقرب به العبد إلى ربه سبحانه

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٩/٢٦١ .

للفوز بجنته بالطريق الذى يهتدى إليه السالك للوصول إلى مقصده . بجامع الاهتداء إلى ما يحقق الغاية المنشودة فى كل .. وكأن أفعال الطاعات وعمل الصالحات هى سبيل العبد الذى يريد التقرب إلى مولاه والفوز بجنته ورضاه .

وقوله جل شأنه : ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ ﴾ احتراس حتى يعلم العبد أنه لا مشيئة له فى الحقيقة إلا بمشيئة الله عز وجل لأن ما شاء الله تعالى وقوعه من العبد وقع وتحقق ، وما لم يشأ منه وقوعه لا يقع ولا يتحقق .

وحُذف مفعول " تشاءون " لإفادة التعميم فى المفعول به مع الاختصار أيضاً ، والتقدير : " وما تشاءون شيئاً إلا أن يشاء الله " .

وفى قوله عز وجل : ﴿ نحن خلقناهم .... وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ ﴾ التفات من الغيبة فى " خلقناهم " إلى الخطاب فى " تشاءون " فمقتضى الظاهر أن يقال : " وما يشاءون " وبهذا " قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر " (١) ، وعُدل هنا من الغيبة إلى الخطاب ليلفت نظر المخاطبين إلى أنه لا مشيئة لهم فى الحقيقة إلا بعد مشيئته عز وجل ، وكأنه يقول لهم : لا تحصل مشيئتكم فى أى حال من الأحوال وفى أى وقت من الأوقات إلا فى حال ووقت حصول مشيئة الله جل فى علاه .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ ﴾ قصر بطريق النفى والاستثناء حيث قُصِر حصول مشيئتهم وتحققها لهم فى أى وقت وفى أى حال على مشيئة الله عز وجل . لأن الأمر إليه وحده سبحانه لا إليهم ، وبهذا فقد نفى الله تعالى أن يفعلوا **شيئاً لهم فيه مشيئة** واختيار إلا أن يكون

---

(١) تفسير البيضاوى ٥/٤٢٥ .

هو سبحانه قد شاء ذلك الفعل فمشيئتهم لا تكون ولا توجد إلا بعد مشيئته سبحانه ، ومقتضى ذلك أن ما لم يشأ الله عز وجل وقوعه منهم لا يقع منهم ، وما شاء وقوعه منهم وقع . ، وهذا المعنى الخفى الدقيق قد أُوثر التعبير عنه بأقوى طرق القصر تأكيداً للمعانى وهو النفى والاستثناء ليتقرر ويتمكن فى نفوس المخاطبين لأنه لا مشيئة لهم البتة ولا اختيار فى فِعْل أى شئ إلا بمشيئة الله جل فى علاه .

" وقد عُلل ارتباط حصول مشيئتهم بمشيئة الله تعالى ، " بأن الله عليم حكيم " أى عليم بوسائل إيجاد مشيئتهم الخير ، حكيم بدقائق ذلك مما لا تبلغ إلى معرفة دقائقه بالكُنْهِ عقول الناس ، لأن هناك تصرفات عُلوية لا يبلغ الناس مبلغ الإطلاع على تفصيلها ولكن حَسبهم الاهتداء بآثارها وتزكية أنفسهم للصد عن الإعراض عن التدبر فيها " (١) .

والله تعالى أعلى وأعلم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٩/٤١٣ .

المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

١- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم أ . د / صبَّاح دراز – ط / مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى .

٢- بدائع الفوائد للإمام الشيخ ابن عبد الله محمد بن أبـــى بكـــر الدمشـــقى المعروف " بابن قيم الجوزية " – ت / هشام عبد العزيز عطا ، عـــادل عبد الحميد العدوى ، أشرف أحمد الجمال – الناشـــر / مكتبـــة نـــزار مصطفى الباز – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

٣- البيان فى غريب إعراب القرآن الكريم للعلامة الأنبارى – ط / الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م .

٤- تفسير ابن كثير للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثيـــر ط / دار إحياء الكتب العربية .

٥- تفسير أبى السعود للإمام أبى السعود العمادى – الناشـــر / دار إحيـــاء التراث العربى – بيروت – لبنان .

٦- تفسير البحر المحيط للإمام أبى حيان الأندلســـى – ط / دار الفكـــر – الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٧- التفسير البلاغى للاستفهام فى القـــرآن الحكـــيم أ . د / عبـــد العظـــيم المطعنى – ط / مكتبة وهبة – القاهرة .

٨- تفسير البيضاوى للقاضى الشيرازى ت / أ.د / حمزة النشـــرتى ، أ.د / عبد الحميد مصطفى ، والشيخ / عبد الحفيظ فرغلـــى – ط / المكتبـــة القيمة ١٤١٨هـ .

٩- تفسير التحرير والتنوير للإمام الشيخ / محمد الطاهر بن عاشور - ط / الدار التونسية للنشر - تونس .

١٠- تفسير روح المعانى للإمام الألوسى ط / دار الفكر ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.

١١- تفسير فاتحة الكتاب للإمام الشيخ / محمد عبده - كتاب التحرير - طبع القاهرة ١٣٨٢هـ .

١٢- تفسير الفخر الرازى للإمام فخر الدين الرازى - ط / دار الفكر - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

١٣- تفسير فى ظلال القرآن الكريم للعلامة سيد قطب - ط / دار الشروق - الطبعة الشرعية العاشرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

١٤- تفسير القرطبى ط / دار الكتب العلمية - الطبعة الخامسة .

١٥- تفسير الكشاف للإمام الزمخشرى ط / دار الريان للتراث الطبعة الثالثة ١٤٧هـ / ١٩٨٧م .

١٦- تفسير مجمع البيان للإمام الطبرسى - نشر دار مكتبة الحياة .

١٧- صحيح مسلم للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى - ت / محمد فؤاد عبد الباقى ط / دار إحياء التراث العربى - الطبعة الثانية ١٩٧٢م .

١٨- فتح البارى بشرح صحيح البخارى للإمام ابن حجر العسقلانى - ط / دار الريان للتراث - الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

١٩- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للعلامة سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل - ط / دار الفكر .

٢٠- لسان العرب للإمام ابن منظور – ط / دار المعارف .

٢١- المعجم الوسيط – ط / المجمع اللغوى بالقاهرة .

٢٢- مع القرآن الكريم فى سورة الملك – أ . د / عبد الرازق فضل – ط / مطبعة الأمانة .

٢٣- مغنى اللبيب وبهامشه حاشية الشيخ الأمير للعلامة ابن هشـــام – ط / دار إحياء الكتب العربية .

٢٤- المفردات فى غريب القرآن الكريم للعلامة الراغب الأصـــفهانى ط / دار المعرفة .

٢٥- نظم الدرر فى تناسب الآيات والســـور للإمـــام البقـــاعى – ط / دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

الفهـــرس

الموضـــــــوع	الصفحة
المقدمة ..	٣
القول فى الاستعاذة .	٥
فضل الاستعاذة .	٨
البسملة تفسيرها – فضلها .	٩
هل البسملة آية من القرآن الكريم ؟	١١
فضل البسملة .	١٢
بعض اللطائف البلاغية المستنبطة من البسملة .	١٤
سورة الإنسان .	١٨
أغراض السورة .	٢٠
بين يدى السورة .	٢١
﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ ... ﴾ الآيات ١ : ٣	٢٤
التحليل اللفظى .	٢٤
المعنى العام .	٢٥
النظم البلاغى .	٢٦
﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ ... ﴾ الآية ٤ .	٣٢
التحليل اللفظى .	٣٢

الموضـــــــوع	الصفحة
المعنى العام .	٣٢
النظم البلاغى .	٣٢
لطيفة فى هذه الآية .	٣٢
﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ ... ﴾ الآيات ٥ : ٩ .	٣٣
التحليل اللفظى .	٣٣
المعنى العام .	٣٤
النظم البلاغى .	٣٤
﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا ... ﴾ الآيات ١٠ : ١٧ .	٣٨
التحليل اللفظى .	٣٨
المعنى العام .	٣٩
النظم البلاغى .	٤٠
﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ... ﴾ الآيات ١٨ : ٢٢ .	٤٣
التحليل اللفظى .	٤٣
المعنى العام .	٤٣
النظم البلاغى .	٤٤
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ... ﴾ الآيات ٢٣ : ٢٦ .	٤٦
التحليل اللفظى .	٤٦

الموضـــــــوع	الصفحة
المعنى العام .	٤٦
النظم البلاغى .	٤٧
﴿ إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ... ﴾ الآيات ٢٧ : ٣١	٥٠
التحليل اللفظى .	٥٠
المعنى العام .	٥٠
النظم البلاغى .	٥١
المصادر والمراجع .	٥٦
الفهـــــــــرس .	٥٩